في الأدب والتراث

التراث والمجتمع الجديد

بقلم الدكتور ناصر الدين الأسد

موضوع « التراث والمجتمع الجديد » من الموضوعات التي كثر الحديث عنها في كل عصر وامة ، فهو موضوع قديم حديث ، يتمثل في هذه المعارك المتعاقبة في كل عصر بين « القديم » و « الجديد » ، وبذلك لا ينحصر في جيل دون جيل ولا يختص بزمن دون زمن .

واذا قصرنا حديثنا على امتنا وحدها ، رأينا هذا الصراع يبرز امامنا واضحا منذ كان لنا تراث معروف :

فقد كان ابو عمرو بن العلاء لا يعد شعرا الا ما قاله الجاهليون والمخضرمون ، حتى لقد قال عنه الاصمعي : « جلست اليه عشر حجج ، فما سمعته يحتج ببيت اسلامي » . ويبدو ان ابا عمرو تساهل وفرط حين نظر في شعر جرير والفرزدق فأعجبه بعضه ، فقال : « لقد حسن هذا المولد حتى هممت ان آمر صبياننا بروايته » . ولكنه حين خشي على نفسه من التوسع فيما يعده شعرا وقف عند حد ابى ان يتجاوزه فقال : « ختم الشعر بذى الرمة » !

وجاء بعده تلميذه الاصمعي ، فسلك سبيله ، واختار مذهبه في تفضيل القديم والاقتصار عليه ، وان كان سار بعده شوطا ، فأدخل في عداد الشعراء بعض من جاء بعد ذي الرمة ، ثم وقف وتحرج من التوسع ، وقال : « ختم الشعر بابن هرمة » .

ولا يجوز ان تؤخذ هذه الاحكام على ظاهر نصها ، فما الى هذا قصد اولئك الاعلام ، ولكنهم كانوا يدفعون عن العربية وتراثها غزوا يريد تدميرهما ، على الوجه الذي سنبينه . وكل ما يعنينا من هذه الاحكام هو دلالتها العامة على ان هؤلاء الرواة العلماء كانوا لا يرون الادب الحق الا هذا التراث القديم ، وكانت كلما جاءت طائفة من تلامذتهم توسعت قليلا وادخلت في نطاق التراث بعض ما سبق عصرها مما لم يدخله اساتذتها ، واقتصرت على رواية هذا التراث القديم وحده وتعصبت له ، وانكرت نتاج عن عاصرها من الشعراء ، وعدتهم من المحدثين او المولدين الذين لا يسمون الى طبقة السابقين ، ورأت في نتاجهم ما لم يجر على نهج معبد ولا على طريق مرسوم . واستمر الامر على ذلك جيلا بعد جيل ، وسيستمر الى ما شاء الله .

***

وقامت مع قيام الطائفة الاولى ، واستمرت معها تواكبها ، طائفة اخرى ، تنكر هذا التراث القديم ، او بعض جوانبه ، وتستهين به بل تسخر منه وتسعى الى ان تهدمه هدما . وتمثل هذا الموقف في اتجاهين يختلفان في المصدر والغاية وقد يلتقيان في المورد والنتيجة .

اما اولهما : فهو ما ذهبت اليه جماعة من المسلمين ممن تمكنت منهم الغفلة واستحكمت فيهم السذاجة ، فنفوا عن العرب في جاهليتهم كل مأثرة . ووصموهم بانهم كانوا امة جاهلة لا حظ لها من علم او معرفة ولا من عمران او رقي ، بعيدة عن كل مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية . وكل ذلك لينصروا الاسلام ، زعموا ، ويعلوا من شأنه . وبرز من هذه الطائفة بعض الوعاظ والزهاد الذين ادخلوا في وعظهم عناصر غريبة عن الاسلام وعن تراث العرب : من القصص والاخبار وضروب الاوهام ، يستعينون بها على التأثير في العامة ، فأساؤوا ، من حيث لم يقدروا ، الى ديننا والى تاريخنا بهذه الاساطير والاوهام . ثم سلك منهم فريق ، في حياتهم ، سلوكا ظنوه زيادة في الورع والتقى ، وكان من تأثرهم في ذلك بمؤثرات غريبة عن الاسلام نفسه دخيلة على التراث ، ان انفصلوا عن روح الاسلام والتراث ، وانقطعوا عن الحياة برمتها ، وضلوا ضلالا بعيدا واضلوا كثيرا من الناس في العصور المتلاحقة .

اما ثاني هذين الاتجاهين فهو ما ذهبت اليه جماعة تملكها الحقد واستبدت بها الضغينة واعمتها العصبية ، فأخذت تنهال على هذا التراث هدما وثلبا . وصفها الجاحظ فقال : « ثم اعلم انك لم تر قط اشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا اعدى على دينه ، ولا اشد استهلاكا لعرضه ، ولا اطول نصبا ، ولا اقل غنما من اهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على اكبادهم ، وتوقد نار الشنان في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفاترة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة » .

فلم يروا في العرب الا انهم رعاة ابل وغنم ، قبائل رحل متفرقة ، لم تجمعهم جامعة ، ولم تؤلفهم حاضرة ، ولم ينتظمهم ملك . فأخلاقهم وعاداتهم وانماط حياتهم ، كلها مثالب ، ليس لهم فكر ولا حكمة ، ولا ادب ولا علم ، وانما ذلك كله لغيرهم ، للامم الاخرى وخاصة الفرس ويونان والهند ، فقالوا : « من احب ان يبلغ في صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ، ويتبحر في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند . ومن احتاج الى العقل والادب ، والعلم بالمراتب والعبر والمثلات ، والالفاظ الكريمة ، والمعاني الشريفة ، فلينظر في سير الملوك . فهذه الفرس ورسائلها وخطبها والفاظها ومعانيها . وهذه يونان ورسائلها وخطبها ، وعللها وحكمها ، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب . وهذه كتب الهند في حكمها واسرارها ، وسيرها وعللها . فمن قرأ هذه الكتب ، وعرف غور تلك العقول ، وغرائب تلك الحكم ، عرف اين البيان والبلاغة واين تكاملت تلك الصناعة » .

فكيف تكون للعرب بلاغة وخطابة ، وقد خاطبهم اولئك الشعوبيون فطعنوا على خطبائهم : بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم ، وعابوا عليهم لغتهم واصواتهم ، ووصموهم بأن قتالهم كان جلة بالعصي ، فقالوا : « فحملتم القنا في الحضر بفضل عادتكم لحملها في السفر ، وحملتموها في المدر بفضل عادتكم لحملها في الوبر ، وحملتموها في السلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب . ولطول اعتيادكم لخاطبة الابل ، جفا كلامكم ، وغلظت مخارج اصواتكم ، حتى كأنكم اذا كلمتم الجلساء انما تخاطبون الصمان . وانما كان جل قتالكم بالعصي ... »

السنا نسمع كل ذلك ، وان اختلفت الالفاظ ، الى يومنا هذا من بعض من اسودت قلوبهم حقدا من بعض المستشرقين وتلامذتهم المستغربين ، ومن بعض من اسودت عقولهم جهلا فاطلعوا على بعض ما عند الامم الاخرى وجهلوا ما لامتهم ، وغرهم ما يرون في حاضرهم ؟

وما شعر العربي ، الم يكن عوجا على رسم يسائله وعلى طلل يبكيه ؟ ومن كانت اولئك العرب من اسد وتميم وعكل ويمن ؟ الم يكونوا اعاريب ؟ « ليس الاعاريب عند الله من احد » ! فكيف تترك الحضارة لمثل هذه البداوة الجافية ؟ الم يقل شاعرهم :

فلست بتـــارك ايـــوان كسرى لتوضح او لحومـل فالدخول
وضب فـي الفـــلا ساع وذئب بها يعوي وليـث وسط غيل

و :

دع الاطلال تسفيها الجنـــوب وتبلي عهـد جدتها الخطوب
وخل لراكـب الوجنـــاء أرضا تخب بهـا النجيبة والنجيب
ولا تأخذ عـــن الاعراب لهـــوا ولا عيشا فعيشهم جديـــب
دع الالبـــان يشربها رجـــال رقيق العيش بينهـــم غريب
بارض نبتهـــا عشـــر وطلـــح واكثـــر صيدها كلب وذيب
فأين البدو مـــن ايوان كسرى واين مـــن الميادين الزروب

ولتستقيم الموازنة الساخرة بين حالة العرب وحالة الفرس كـان لا بد ان يقول الشاعر في ذروة المجد العربي ايام بني امية :

فاتركي الفخر يـــا امام علينـــا واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي ان جهلت عنـــا وعنكم كيف كنا في سالف الاحقـــاب
اذ نربـــي بناتنـــا وتـــدسو ن سفاها بناتكم فـــي التراب !

فهل ابقت العرب اذن تراثا يعتز به ويحافظ عليه :

تراث انو شروان كسرى ، ولم تكن مواريث ما ابقت تميم ولا بكـر

فلا بد اذن من التخلي عن كل هذا التراث العربي : في الشعـر والنثر والاخلاق والعادات والقيم ، ولا بد من احياء تراث فارس فـي كل ذلك :

انـــا ابـــن الاكارم من نسل جم وحائز ارث ملـــوك العجم
ومحيي الذي باد مـــن عزهـــم وعفى عليـــه طوال القدم
وطالـــب اوتارهـــم جهـــرة فمن نام عن حقهم لـــم انم

ومع ذلك فقد كانت هذه الشعوبية اعلم الناس بزيف دعواهـــا وبطلان افترائهـــا . فقـــد كانت تجمـــع فـي آن بيـــن تسفيه تـــراث العرب والتثقف بهذا التراث ، فنجد رجلا مثل ابي نواس كان « عالما فقيها ، عارفا بالاحكام والفتيا ، بصيرا بالاختلاف ، صاحب حفظ ونظـر ومعرفة بطرق الحديث ، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمـــه ومتشابهه ... وكان احفظ لاشعار القدمـــاء والمخضرمين واوائـــل الاسلاميين والمحدثين » . وقد قال عن نفسه : « ما قلت الشعر حتـى رويت لستين امرأة من العرب، منهم الخنساء وليلى ، فما ظنك بالرجال»!

فلم تكن دعواهم اذن الا تنفيسا عن حقد ، وترويجا للاباطيل بيـن الناس ليخدعوهم عن انفسهم ، ويشككوهم في تراثهم ، ويزعزعوا ثقتهم بأمتهم ويفصلوا حاضرهم عن ماضيهم ، فيقطعوا ثقافتهم عـــن جذورها الاصيلة . ولا شك في ان هذه الدعوى وجدت من يصدقها حينئذ كمـــا تجد دعاوى تشبهها من يصدقها وينخدع بها في عصرنا هذا .

ومع خطورة هذه الدعوى فقد كانت عداوة مكشوفة وحقدا باديـا يسهل على المرء درؤهما وتفنيدهما . ولكن البلاء الشديد يكمن في ذلك العمل الصامت الذي تضافرت فيه جهود كثيرين مـــن هذه الطائفـــة لتشويه تراثنا وتدميره من داخله بمادسته فيه مـــن زيف وتحريف ووضع ، فتسللت الى ايام العرب وانسابها واخبارها ، اي الى تاريخنا السياسي والاجتماعي ، والى احاديث الرسول صلى الله عليه وسلـم والى تفسير كتاب الله تعالى . حتى بتنا احوج الناس الى تمحيص هذا التراث وتحريره ، لنستبين الاصيل من الدخيل ، ونميز الصحيح مـن المزيف ، في تاريخنا السياسي والفكري والادبي والاجتماعي .

فلم تكن اذن دعوة هذه الطائفة دعوة تقدمية الى نمو وتطور وبنـاء جديد ـ وان تظاهرت في بعض جوانبها بذلك خداعا وتضليلا . وانمـا هي دعوة رجعية ضيقة قائمة على العصبية والهدم ، سلاحها الافتـراء والتزييف .

***

وقامت مع قيام هاتين الطائفتين ، واستمرت معهما تواكبهما ، طائفة ثالثة هي اقرب الثلاث الى الفهم السليم والى طبيعة الحياة الصحيحة. جمعت بين الحسنيين ، ورأت ان الحياة لا يمكن ان تجمد وتقف حيـث كانت ، ولكنها في الوقت نفسه لا يمكن ان تنطلق متحللة من كل نظـام يربطها بخصائصها ومقوماتها التي تتمثل في تراثها . فأنزلت هـــذه الطائفة قديمها في منزله الصحيح وعكفت عليه تدرسه وتحييه وتجدده وتستخرج كوامنه وتجلو روائعه . ثم مضت في حياتها على هدي مـــن هذا التراث تستقبل الجديد وتحيا فيه حيـاة سليمة وتشارك فيـــه مشاركة اصيلة .

واذا اردنا ان نعرض نماذج من هذه الطائفة فربما كان اول مـــن نبدأ بهم هم كبار الصحابة . فقد نزل القرآن الكريم على رسول اللـه صلى الله عليه وسلم وهو بينهم ، فكانوا اقرب الناس الى فهم مراميه. لقد نقد الوحي بالبالي من التقاليد الموروثة التي كانـت تشد الناس الى الوراء شدا يحول بينهم وبين الفهم الصحيح للحياة ويعوق تطورهم. لقد كان ـ كما يحلو لبعض المحدثين ان يقولوا ـ ثورة علـى العـادات البالية والمفاهيم الرثة . ولكنه لم يكن قط هدما للتراث والقيم القديمة كلها . ولذلك كان الصحابة يجمعون في حياتهم بين التطور والنمو فـي المجتمع الجديد وقيمه وبين التمسك بالتراث الجاهلـي ومحافظتهـم عليه . فكثيرا ما كان هؤلاء الصحابة يروون مآثـــر العرب ويتذاكرون اخبارهم ويتناشدون اشعارهم . ومـا اكثر الاخبار التي تروى عن عمـر ابن الخطاب وعنايته بالشعر الجاهلي ، واعجابه بأبيات منـــه بعينها ، وتفضيله لشاعر على شاعر . وكذلك كان ابو بكر عالما بأيـــام العرب وانسابهم ، راوية للشعر الجاهلي ، يتمثل به في مواقفه ، ويستنشـد الشعراء ما قالوه في جاهليتهم واسلامهم . وكذلك كان جـل الصحابة من الرجال والنساء . بل لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلـم يستنشد الصحابة الشعر ويسائلهم عنه ، ويستعيد ما يستحسنه منه، ويبدي اعجابه ببعضه . وكان هؤلاء الصحابة يرون الشعر ديوان العرب وسجل مآثرهم ، وكانوا يحضون على روايته ودراسته ، بل كانوا يرون انه اساس ثقافتهم الاسلامية ، فكثيرا ما كانوا يستشهدون على الفاظ في القرآن بأبيات من الشعر الجاهلي ويرون انه لا يفهم بعض ذلـك الا بهـــذا .

ومرت السنون ، واشتد الصراع بين دعاة التمسك بالقديم وايثاره ودعاة هدمه وانكاره . وقام من ينظر الى الامر نظرة الحق المبرأ مـــن الهوى المجرد من التعصب . فهذا الجاحظ يعلن رأيه واضحا في قوله :

« وقد رأيت ناسا منهم يبهرجون اشعار المولدين ، ويستسقطون من رواها . ولم ار ذلك قط الا في راوية للشعر غير بصير بجوهر مـا يروى . ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفـــي أي زمان كان » .

وزاد ابن قتيبة من وضوح القضية فقال : « لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بـــل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، في كل دهر ، وجعل كـل قديم حديثا في عصره » .

وقال ابن رشيق : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانـه بالاضافة الى من كان قبله » .

وتمثل ذلك واضحا في بيت الشاعر :

ان هذا القديم كـــان جديدا وسيضحى هذا الجديد قديما .

وهي سنة الحياة ولا سبيل الى الخروج عليها .

ولذلك نجد بعض شعرائنا الذين ادركوا هذه الحقيقة في مختلف عصورنا الادبية قد عكفوا على هذا التراث الفكري والفني والاجتماعي والسياسي فدرسوه دراسة تعمق وشمول وعاشوا فيه وتمثلوا قيمـه ومثله ، الى ان استقامت لهم طريقتهم فمضوا قدما يتفاعلـون مـــع حياتهم الجديدة ، ويفتحون نفوسهم وعقولهم لانواع المعارف والثقافات، فتلقوا منها ما شاؤوا هم ، لا ما اريد لهم ، فأساغوها ، وهضموها حتـى صارت جزءا من ثقافتهم ، من تراثهم ، من كيانهم ، ثم افرغوها فـــي قالبهم واخرجوها لنا في معالم جديدة في الشكل والمضمون : فـــي الالفاظ والاوزان وتنوع القوافي حينا ، وفي المعاني والصور والاخيلـة والموضوعات ، أي في التجربة الفنية ، حينا اخر . فأصبح تجديدهـــم جزءا من تراثنا زاد من خصبه ومن غناه .

***

ونخلص من كل ما تقدم الى معالم واضحة :

اولها : ان تاريخنا الفكري قد عرف هذا الصراع بين القديم والجديد معرفة واعية ، وانزله منزله الصحيح ، فقامت طائفة من العلماء والرواة والشعراء ورجال الفكر يتمسكون بالقديم ، ويدعون الى تقديمه وتفضيله ، ويذودون عنه كيد الكائدين ودسائس المغرضين الذين ارادوا أن يهدموا هذا التراث ليجتثوا اصول الامة ، ويفصلوا حاضرها عن ماضيها .

ولم يكن موقف هذه الفئة عن جمود او تعصب ، ولا عن جهل او ضيق افق ، وانما كان موقف المدافع امام هجوم مدبر ، ولا بد للمدافع من التشدد والصلابة وعدم التفريط .

وقامت فئة ثانية تدعو دعوة الفئة الاولى ولكنها كانت تعلم ان هذا القديم ليس اثارا تحفظ في متحف ، وانما هو حياة نامية ، فقبلوا الجديد حين كان تطورا طبيعيا من القديم ، وحين كان يصدر عن نفس الامة ويعبر عن ذاتها ،وليس مجرد تقليد لمظاهر مجتلبة ولا محاكاة لانماط ومذاهب غربية عن روح الامة وتراثها .

وثانيها : ان هذا التراث العربي ـ في ضوء ما تقدم ـ كان دائم التجدد ، لا ينفك يتفاعل مع الحياة تفاعلا خصبا ، ويتجاوب معها تجاوبا اصيلا . وكان ابدا تراثا منفتحا على غيره ، غير مغلق على نفسه، كان يأخذ ويعطي ، وكان دائما في اخذه وعطائه يصدر عن شعور عميق في نفس هذه الامة برسالتها الانسانية . ولذلك كان دائما في تجدده ينبع من ذات النفس العربية في صدق واصالة .

ولا يمكن لتراث غير اصيل ، لا يعبر عن ذات الامة التي ينتمي اليها ، ان تكون له رسالة انسانية ، حين يلتقط فتات الامم الاخرى ، في تقليد سطحي ومحاكاة ظاهرية .

وثالثها : ان جميع الذين نهضوا بعبء التجديد كانوا ممن تزودوا بالتراث العربي تزودا فيه تمكن وعمق ، واحسوا بالروح العربية احساسا يسر لهم السبيل للتعبير عنها ، دون عجمة ولا اغراب ، فأصبح تجديدهم جزءا من هذا التراث في سيره العظيم . اما اولئك الذين كانوا ينزعون عن جهل ، ويدعون التجديد عن عجز ، والذين كانوا يريدون ان يحرفوا موكب التراث عن وجهته ليضل طريقه ، فقد باءت محاولاتهم بالخذلان ، وبقي التراث يؤدي رسالته .

ورابعها : ان تراث الامة هو روحها ومقوماتها وتاريخها ، والامة التي تتخلى عن تراثها تميت روحها وتهدم مقوماتها وتعيش بلا تاريخ . والامم كلها ، مهما تكن فلسفتها الاجتماعية والاقتصادية ، تحرص اشد الحرص على تراثها وتبذل جهودا كبيرة لاحيائه ونشره وبثه في نفوس ابنائها ، بل ان بعض الامم الحديثة تفتعل لنفسها تراثا تجمع اجزاءه تجميعا وتنفخ فيه نفخا لتتم له صورة تقيء اليها الامة وتنطلق منها . فليس صحيحا ان الاخذ بأسباب الحضارة يستلزم هدم التراث ، وقد انخدعت بعض الامم بهذه الدعوى فأصبحت كالمنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى. وانما الصحيح ان تقدم الامة ـ حين تبدأ الحياة تنساب فيها ـ انما يكون من داخل نفسها وينطلق من تراثها .

منشورات ((دار الاداب))

تطلب في القاهرة

من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

(سليمان باشا سابقا)

وخامسها : ان تراثنا قد تعرض لضروب عنيفة من الغزو استطاع ان يقف للظاهر منها ويدفعه . ولكن بعض هذا الغزو كان مستترا ، تقنع بأقنعة خادعة ، وهاجم هذا التراث من اعماقه ، من داخل حصونه : فكان ان وضع كثير من الاحاديث النبوية ، ودست في تفسير القرآن وفي تاريخنا الفكري والسياسي والاجتماعي اساطير واقاصيص غير عربية ولا اسلامية ، من تراث اليونان والفرس والهند واليهود ، وبثت فيه روايات ملونة بالاهواء المضلة . وتداخل ذلك كله في تراثنا ، وانطلى علينا بعضه . ولذلك اصبحنا نرى التناقض والتشويه في بعض اجزاء هذا التراث ، فيما تفرق فيه من روايات واخبار ، تدعو الى الحيرة والاضطراب ، وتمسخ جوانب من حياتنا الفكرية والاجتماعية ، وتشوه بعض المعالم الكبرى في تاريخنا ، وتلقي على رجالنا ، في شتى الميادين، ظلالا قاتمة من الشك في اعمالهم واقوالهم ، والانتقاص من قيمتهم الحقيقية .

وسادسها : ان جل جهودنا حتى الان قد اتجه الى طبع هذا التراث طبعات تتفاوت في جودة تحقيقها ، وقد تيسر لنا في هذا الميدان قدر صالح ، وان كان لا يزال دون ما نريد . واتجهت جهود اخرى اقل من الاولى ، وان كانت كبيرة القيمة في ذاتها ، الى تحرير هذا التراث من الزيف الذي علق به ، والى تخليصه من الشوائب التي كدرت صفاءه ، والى تجريده من الدخيل الذي هجنه . ولكن هذه الجهود ظلت محصورة في نطاق ضيق يقتصر على الصفوة والخاصة من العلماء والادباء . واتجهت اقل الجهود الى نشر هذا التراث بين الناشئة من تلامذة المدارس ، وبين طلبة الجامعات وجمهرة المتعلمين والمثقفين ، نشرا يعتمد على التذوق الفني لما فيه من جمال واصالة وصدق ، وعلى التقدير الحقيقي لما فيه من قيم ومثل ونظم اجتماعية وانسانية ، وعلى التعرف الموضوعي ـ البعيد عن العاطفة السطحية والانفعال العابر ـ الى ما فيه من جهد عميق في جميع ميادين المعرفة النظرية والتجريبية ، والى نصيبه الوافر ومشاركته الايجابية في بناء الحضارة الانسانية .

ان هذه الاحكام شائعة عامة ولكن اكثرنا يسمع بها بالتلقين السطحي العابر ، فلا يكون لها في العقل والنفس دلالة واضحة ولا احساس عميق ، بل ان اكثر متعلمينا ومثقفينا يشكون فيها بل انهم ليسخرون منها وينكرونها ، لانهم علموا بعض ما عند الاخرين وجهلوا ما عند قومهم ، ولانهم اطلعوا على بعض ما كتبه ذوو الاغراض والاهواء في التهوين من تراثنا والتقليل من شأنه والازراء به ، فانخدعوا به وصدقوه .

وما اكثر الكلام الذي يقال عن مجتمعاتنا الرجعية وانظمتنا التي انقطع بها الزمن ، وعن تاريخنا الذي قام على السيف وجباية الاموال ، وعن سير اعلامنا التي لم تلتفت الا الى الخلفاء والحكام والولاة ، وعن ادبنا الذي كان ادب كدية واستجداء ونفاق في بلاط الملوك والامراء ، وعن لغتنا التي اصبحت عاجزة عن مواكبة حياتنا العصرية ومتطلباتنا العلمية ، وعن فلسفتنا وعلومنا التي لم تكن الا نقلا مشوها لنتاج اليونان والهنود وغيرهم .

ولا يجوز ان نستهين بهذا الذي يقال ويكتب ، ونعده مما يكتب عنا الاعداء الاجانب ، فقد بدأ الاجانب بذلك ، ولكننا تلقينا عنهم وتلمذنا لهم ، واصبحنا نطعن انفسنا بأنفسنا ، بل صار كثير منا اشد عداوة لنا من الاجانب .

ولا بد لنا من ان نتدارك الامر قبل ان يزيد استفحالا وضرارة . ولا يكون ذلك الا بالعمل الواعي الدؤوب على احياء هذا التراث ، واعادة تقويمه ، وتحريره من كل ما اندس فيه ، وتنشئة الامة عليه تنشئة مبصرة تقودها الى معرفة ذاتها والثقة بنفسها .

وسابعها : ان التجديد في الادب خاصة ، وفي التراث الفني والفكري عامة ، امر لا يجوز ان يكون مثار جدال ولا موضع انكار ، حين تنتفي مظنة العداء لهذا التراث ، وحين يقوم بالامر افراد من انفسنا احاطوا بتراثنا احاطة معرفة وفهم وتذوق ، وارتوت نفوسهم من معينه

الثر ومن قيمه ومثله ، ثم تفتحت على افاق جديدة لم نعرفها في التراث القديم ولكنها انحدرت من روحه ومن جوهر كيانه ، ونبعت من ذات الامة ومشاعرها وحياتها وحاجاتها وآمالها .

ولا بد من روافد متجددة تصب في هذا التراث ، فتحرك ساكنة حينا ، وتزيد ماءه حينا اخر ، وتعمق مجراه وتوسعه حينا ثالثا . فلا بد من الاطلاع على ثقافات الامم ومعارفها في القديم والحديث ، ولا بد من ترجمة بعض هذه الروائع والذخائر ، فهي ملك الانسانية كلها . واذا كان تراثنا في الماضي لم يتردد في الاسترفاد بضروب التراث المختلفة عند الامم جميعها وامتص كثيرا منها وجعلها جزءا منه ، فاننا سنقصر في حق انفسنا وكرامتنا الفكرية ، وفي حق التراث الذي نصنعه للمستقبل حين نغلق منافذ النور من حيث اتى ، ونقتصر على الاستضاءة بما عندنا ، فيفسد الهواء بعد حين ، وينضب الزيت ، وينطفيء المصباح. فلا بد من ان نفتح النوافذ كلها لنستقبل النور والهواء ، على ان نرى النور بأعيننا لا بأعين غيرنا ، وان نتنفس الهواء برئاتنا لا بالرئات التي تصنع لنا ، وان نفتح النوافذ ونغلقها حين نريد نحن لا حين يراد لنا ، وعلى الصورة التي نختارها لا على الصورة التي تفرض علينا .

وليس الامر في التجديد امر الفاظ او اخيلة او معان او اوزان او قواف . فذلك كله شيء قد كان في جميع عصورنا الادبية على تفاوت بينها . وهو شيء قد انصرفت اليه جهود موفقة في الثلث الاول من هذا القرن ، ولم تثر شيئا من الانكار عند الكثيرين .

الامر في التجديد ليس هذا كله ولا شيئا مثله ، ولكنه اعمق وابعد . ان اساس الامر هو مدى انسجام المنهج النفسي والاحساس الفني عند المجددين مع المنهج النفسي والاحساس الفني للامة وروح تراثها . واذا كان لا يجوز لاحد ان يدعو الى تجميد التراث جيلا بعد جيل والى ان يحتذى الخلف خطوات السلف احتذاء تطابق وتشابه ، لان في ذلك حجرا على الحياة نفسها بل افناء لها ، فان السؤال الذي يجب ان يسأل دائما هو : هل هذا التجديد هو تطور اصيل ، نابع من وجدان الفرد والامة ، متجاوب مع طبيعة حياتها وجوهر كيانها ، مواكب للمرحلة التي تمر فيها ، متطلع الى المستقبل الذي ترنو اليه ، متسق مع روح التراث ، معبر عن تجربة فنية ذاتية . هل هو حلقة متماسكة في سلسلة متصلة تتدرج تدرجا طبيعيا يقود بعضها الى بعض وينتهي اولها الى اخرها ؟ او انه شيء لا تعرفه الامة ، ولا تحس به ، ولا تتذوقه ، ولا تحتاج اليه . شيء غريب عنها ، دخيل عليها ، منقطع الصلة بها وبأصولها وتراثها . شيء صنعه غيرها ، وكان عنده نتاجا طبيعيا في بيئته لانه نابع من ظروفه متطور عن مجتمعه ، فهو بذلك جزء من حضارته ، جزء من منهجه النفسي واحساسه الفني ؟ ثم جاء منا من يقلده ويحتذيه ، دون ان يتمثله ويهضمه ، ودون ان يصبح جزءا من احساسه واحساس امته . لئن كان احتذاء القديم تقليدا ، فماذا نسمي هذا الضرب من التقليد للاجنبي الغريب ؟ اليس انحرافا بالامة عن طريقها ، وتمويقا لها في انطلاقها ، وتضليلا لها عن نفسها ، وتدميرا لجذورها واصولها ، لتصبح كجذع الشجرة الذي يغرس على ظاهر الارض ، بغير جذور تضرب الاعماق ، وقد تركب له الغصون والاوراق والثمار المجلوبة المصنوعة فتعجب بعض الرائين وتخدعهم ، ولكنه لا يستطيع ان يورق ولا ان يثمر لانه ميت لا حياة فيه .

ولا بد لكل نتاج جديد ، يصح ان يعد في المستقبل تراثا ، من ان تكون له جذوره الحضارية الخاصة به التي تسبغ عليه اصالته وتطبعه بشخصيته المميزة . واذا كانت الصلة بين الادب والحياة صلة وثيقة ، فان كل تجديد في الادب والفن عامة ، يجب ان يكون متسقا مع طبيعة حياة الامة وروحها ، فالتطور في الادب ينبع من تطور المجتمع ، وحين يكون كذلك يكون في الوقت نفسه عاملا من عوامل تطوير هذا المجتمع تطويرا سليمان دون ان يفصله عن جذوره ، ويقطعه عن اصوله ، ويعريه عن اصالته .

الدكتور ناصر الدين الاسد

دار الثقافة ـ بيروت

تقدم

اخر ما صدر عنها

★★

الثمن	
٥٠٠	**الذيل والتكملة** الكتاب العاشر من المكتبة الاندلسية السفر الرابع
٧٠٠	**الذيل والتكملة** الكتاب الحادي عشر من المكتبة الاندلسية السفر الخامس الجزء الاول
٧٠٠	**الذيل والتكملة** الكتاب الثاني عشر من المكتبة الاندلسية السفر الخامس الجزء الثاني
٤٠٠	**ابن الزقاق البلفسي** عفيفة الديراني
٢٠٠	**اشباح ورموز** مارون عبود
٢٠٠	**الزهاوي بين الثورة والسكوت** عبد الرزاق الهلالي
٥٠٠	**الحرف الشعبية في لبنان** ادفيك شيبوب
٣٠٠	**لغة الشعر بين جيلين** الدكتور ابراهيم السمرائي
٣٥٠	**ادباء معاصرون** الدكتور محمود السمرة
٥٠٠	**سليم النقاش** اختبار الدكتور محمد نجم
١٧٥٠	**الشعر والشعراء** لابن قتيبة جزءان تجليد فاخر